الفلسفة عند اليهود

ان حكماء الامة الاسرائيلية انصرفوا خلال عصورها الاولى الى الانذار والتعليم بمعرفة الله تعالى والقول بوحدانيته وخلقه الكائنات كلها ولم يذهبوا الى ما وراء ذلك من البحث في صفات الخالق وحقيقة النفس وما اشبه من النظريات التي ملأت كتب الهند واليونان وكل امة كان لها من الفلسفة نصيب وافر اي انهم وقفوا عند حد الايمان المطلق غير مستندين الى الابحاث العلمية ولا متبعين طريقة فلسفية

الا انهم في الاحايين كانوا يحومون حول المباحث النظرية ولكنهم لم يكونوا ليدخلوها من ابوابها سالكين اليها طريق الدليل والبرهان بل كانوا يقولون بالرأي ويدعمونه عوض البرهان بالاسناد الى الوحي . مثال ذلك مسألة الخير والشر فانهم قالوا ان الله تعالى خير مطلق ولا يصدر عنه الا الخير واستدلوا على ذلك بما ورد في الكتاب من ان الله كان اذا خلق شيئًا رآه حسنًا . واذ اشكل عليهم حل مسألة الشر وخافوا ان يقودهم الكلام فيه الى الوقوع في الخطإ قالوا ان الشر من صنعة البشر يتولد من انتصار المبدإ المادي على المبدإ العقلي ولما كان الانسان حرًّا في اعماله وارادته صار من الواجب عليه ان يجعل اعماله منطبقة على مبدإ الخير السامي لئلا تغلبه المادة فيصير عبدًا للشر . وهذا القول يرتبط ارتباطًا قويًّا بالمبدإ القائل بحرية الارادة الذي هو من المبادئ الاساسية في العقائد الموسوية على ما يؤخذ من سفر التثنية حيث قيل انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر

وسار حكماء اليهود على سبل الكثير من حكماء الشرق في تمثيل الحكمة في الشكل الشعري او بما يقرب من نوعه من الامثال والاحاجي لاسيما وانهم كانوا اذا اقتربوا من النظريات الفلسفية المحضة ارجعوها الى دائرة الدين وجعلوا الحكم فيها فوق مدارك العقل اعتبر بما ورد في سفر ايوب من اجتماع الحكماء وبحثهم في مسألة العناية الالهية والقدر كيف ظهر الله في عاصفة لايوب واظهر له قصر المدارك البشرية عن اكتناه اسرار الطبيعة ووجوب خضوع الانسان لله والتسليم لارادته الى غير ذلك مما يذهب بالقضايا الفلسفية الى الوجهة الدينية .

على ان الجلاء البابلي ادَّى الى اختلاط اليهود بالبابليين والاطلاع على حكمتهم وحكمة الفرس مجاوريهم ولا بدَّ لهذا الاختلاط من ان ينقل شيئًا من تمدن الكلدان والفرس الى عقائد اليهود وعاداتهم لما يحدث المحيط الكبير عادةً في الفئة الصغرى من التغيير والتكييف في اخلاقها وعاداتها وعقائدها وسائر شؤونها الاجتماعية لاسيما وان اليهود لم يروا في معتقدات

غاليهم ما يدعو الى النفرة والاشمئزاز فالفرس على ما شهد من كتابهم الديني الزندافستا قالوا بالوحدانية وان لم تكن مطلقة وشابهوا اليهود من حيث الكراهة للوثنية فحدث بهم تلك المشابهة الى التقرّب والامتزاج

الا ان الفرس انفسهم لم يبلغوا الشأو العظيم من الفلسفة بحيث يحصل من فيضها باليهود ما يكفي لادخال الابحاث النظرية في كتاباتهم · يؤيد ذلك خلو الاسفار المكتوبة بعد الجلاء من روح الحكمة والكلام فيما وراء الطبيعة وبقاؤها من هذه الوجهة على ما كانت عليه قبل الجلاء · ولما تسوّد اليونان سوريا وانتشرت فيها معارفهم وآدابهم الفلسفية ثارت في اليهود الرغبة في طلب العلم وارتياد الفلسفة اعلاء لقدرهم في عيون الفاتحين الذين كانوا يزدرون بعوائدهم ويمتهنون آدابهم لذلك عدل اليهود الى الكتب المقدسة فشرحوها واسهبوا في تفسير غوامضها مدخلين اليها شيئًا من الآراء الفلسفية اليونانية التي كانت لذلك العهد زاهرة في الاسكندرية

وقد ذكر لنا التاريخ اسماء كثيرين من علماء اليهود الذين اشتهروا في الفلسفة وساروا فيها شوطًا بعيدًا وفسروا النصوص الكتابية بالاراء الفلسفية اليونانية تفسيرًا دلّ على تضلعهم من آراء افلاطون وفيثاغورس وغيرهما من الحكماء التابعين . ومما يذكر ان الذين تتوقوا في دراسة الفلسفة المنتخبة Eclectique من اليهود غالوا في التفاخر بعقائدهم والقول بانها مصدر الفلسفة في العالم وان فيثاغورس وافلاطون وارسطوطاليس وغيرهم من اقطاب العلم مروا في تطوافهم على بلاد اسرائيل واخذوا عن حكمائها الاقدمين العلم والحكمة

واما يهود فلسطين فظلوا على طاعة البطالسة ملوك مصر حوالي مئة سنة اقتبسوا في خلالها شيئًا كثيرًا من الفنون والمعارف اليونانية حتى اذا استحوذ السلوقيون ملوك سوريا على فلسطين كان معظم اليهود قد اخذوا التمدن اليوناني واقتبسوا من ارائه ما كاد يضر بالديانة الاسرائيلية لولا النهضة التي حدثت على عهد المكابيين ومع ذلك ظل المنطق اليوناني الغاية التي يرمي اليها عقلاء اليهود والحلبة التي تتجارى في مضمارها سوابق هممهم

يومئذ نبغ في فلسطين فرقتان الفريسية والصدوقية فاحداها الفريسية كانت تقبل كل العقائد والمبادىء والطقوس التي كرّ عليها الدهر وصارت مقدسة بحكم الزمن وشرعت تدعي القدامة والمصدر الالهي وان ما اتصل بها كان تقليدًا شفاهيًا من الاباء والجدود · ويذهب البعض ان تعاليم هذه الفرقة مأخوذ معظمها عن تعاليم الكلدان والفرس · وكيف كان الامر فان لشرعتها في التفسير يدًا في احياء اللغة والاداب العبرانية وفي انهاض العقول النيرة

الى خوض المباحث اللاهوتية والتخريجات الفلسفية

اما الفرقة الثانية وهي الصدوقية فلم تقل بالتقليد الشفاهي وبكل مبدإ لم يكن مدوناً في اسفار موسى فجردوا بذلك العقائد الموسوية مما يمكن ان يضاف اليها من الزوائد وتوسعوا في الاحتفاظ حتى انكروا خلود النفس ومداخلة العناية الالهية في اعمال البشر زاعمين ان هذه المداخلة تنافي القول بان الانسان فاعل مختار

وقد نبغ من الفريسيين قوم يصح تسميتهم بالحكماء العاملين وكان مذهبهم القول بالمبادىء والرسوم والآداب الفريسية ولم يقفوا وقوف الفريسيين عند حد القول وانما قرنوه بالعمل بالزهد والعفة والتقشف حتى علق بهم عامة الناس واعطوهم المكان الرفيع من التجلة والاكرام. ولا غرو فالعامة تأخذهم الظواهر في كل زمان ومكان

وعرف رجال هذه الفئة بالاسينيين تسمية ربما كانت مشتقة من الكلمة السريانية اسايا بمعنى أساة اي اطباء وقد ذهب البعض ان الاسينيين فرع من الجمعية اليهودية المصرية المسماة بالترابيون على ان الذين بحثوا في سنن هذه الفرقة لم يروا بينها وبين الاسينية مشابهة كبرى تجعل الصلة قوية وان المصرية كانت تختار العزلة والعقاف والتأملات والاسينية لم ترتض الانفراد بل حسبت اتباع الفضيلة والحض بها بين الناس اجزل فائدة للمجتمع لا سيما وان فيلون هو المرجع فيما يقال عن هاتين الفرقتين وقد كتب عنهما مطولاً ومع ذلك لم يذكر من امر الصلة شيئاً

وقد قيل ان الاسينية كانت تمتاز عن سواها من الفرق اليهودية بحب اعضائها بعضهم لبعض حباً شديداً وانها كانت تستكشف الملاذ وتحسب امتلاك هوى النفس وغلبة الشهوات فضيلة كبرى وتأبى الزواج. لكنها تختار النجباء من صغار اولاد الآخرين وتقدم على تربيتهم وانشائهم على منهاجها ومع هذا لا ينكرون على الناس فائدة الزواج بايلاد البنين حفظاً للنسل وانما يحترسون من مسلك النساء لاعتقادهم انهن لا يحفظن الامانة للرجل. وكانوا يحتقرون الغنى ويعيشون بالاشتراك فلا تجد واحداً منهم يملك اكثر مما يملك الآخر واذا اراد واحد من الناس الدخول في مصافهم فكان عليه ان يجعل كل ما ملكت يداه مشتركاً بين الجماعة وبهذا لا تجد بينهم مظاهر الفقر المدقع او الغنى الطائل بل كانت قنية كل واحد منهم كأنها قنية الجميع وهم قيمون على مصالحهم العامة ولا يسوغ لواحد منهم ان ينظر في مصلحته الخاصة وانما ينظر في ما يعود نفعه على مصلحة الجمهور الى غير ذلك من ضروب العيشة الاشتراكية التي يضيق بنا المقام عن اشباع الكلام فيها

وغاية ما يقال عن الفلسفة اليهودية انها جمعت بين الافكار الشرقية والغربية وبعبارة اوضح انها كانت الحلقة المتوسطة التي بها اتصلت الابحاث النظرية الشرقية بالفلسفة الغربية. وقد قام اليهود بهذا العمل الاتصالي غير مرة في ازمنة مختلفة من التاريخ

وفي العصور الاولى من الزمن المسيحي اسرف نواب قياصرة الروم في ظلم اليهود واعناتهم حتى لجأوا الى العصيان وكانت الحرب بينهم هائلة دوّخ الرومان في غضونها بلاد فلسطين وحصروا اورشليم سنة ٧٠ م. ثم دخلوها عنوةً ومثّلوا باهلها تمثيلاً شنيعاً ولم يطل الامر حتى خرج اليهود عن طاعة الرومان ثانيةً ايام ادريانوس سنة ١٣٥ م فاعمل بهم السيف وفرّق شملهم فتشتتوا في انحاء الارض . ويومئذ علم اليهود انهُ يستحيل عليهم اتخاذ اورشليم عاصمة دينية لذلك اتجهت خواطرهم الى جمع كلمتهم تحت لواء الدين وتعزيز الوحدة الدينية باحياء وتدوين التعاليم السماعية فمن كتاب فوضع البقية الباقية من علماء كهانهم في اورشليم كتاباً سموهُ المشنه وهو متن التلمود فكانت خميسة على اسفارهم القديمة ثم توالى على مدارسهم القرنان الرابع والخامس وفي تضاعيفهما من حملات التعصب الذميم ما اودى باليهودية الى الخراب وادى الى توسيع مجموعة المشنه فوضعوا الجمارة وهي شرح المشنه ثم توسعوا في الجمارة فالفوا التلمود واودعوهُ مجموع تعاليمهم من مفاد منقول المعتقد ومنزل الاسفار فكانت خلاصة كتبهم الدينية وخزانة شرائعهم وعلومهم.

ولقد مرّت القرون الاولى من التاريخ المسيحي على اليهود وهم بعيدون عن المباحث الفلسفية والاشتغال بالعلم يؤيد هذا القول خلو المشنه والتلمود من الابحاث النظرية والكلام فيما وراء الطبيعة الا ان قوماً منهم انفوا البقاء تحت النير الروماني يقاسون جور التعصب واعتساف دعاته فجاءوا بلاد العرب قبل الاسلام واستوطنوها وتوفرت بينهم وبين الاهلين اسباب الائتلاف لما بينهم من التشابه في اللغة والتقارب في الجنس وعدم وجود دولة في العرب جامعة تفرق بين الاصيل والدخيل

ولما جاء الاسلام وامتدت فتوحاتهُ الى شرق الارض وغربها لم تكن وطأتهُ ثقيلة على اليهود الذين كانوا ناقمين من جور الرومان والفرس فرحبوا بالفاتحين وانتعشت ارواحهم وتجددت قواهم وانصرفت جماعة منهم للاشتغال بالعلم والادب. ومما زادهم رغبةً في ذلك اقبال بعض الخلفاء عليهم كما اقبلوا على علماء النصارى فنبغ منهم عدد من العلماء والاطباء وازداد عدد نابغيهم في الدولة العباسية واشتهر منهم كثيرون كسعدية بن يوسف المصري المعروف عند العرب بسعيد بن يعقوب الفيومي وشموئيل بن حفني وغيرهم كثير من رجال العلم والادب

وفي سنة ٧٦٥ م ايام الخليفة العباسي جعفر ابي منصور ظهرت فرقة جديدة في بابل انشأها عانان بن داود وتعرف بالقرائين كانت غايتها التخلص من تسود الربانية وتحرير اليهود من نير التقليد واتباع احكام العقل والعمل بالامتحان لا بالاسناد الى فلان او فلان وبما ورد في النصوص المقدسة لا بالسنن الموضوعة في المشنة ومع هذا لم يحذُ زعيم القرائين عانان بن داود حذو الصدوقيين القدماء الذين قالوا بوجوب نبذ كل تفسير وتقليد وانما قال بوجوب تطبيق كل التفاسير والتقاليد على احكام العقل وما كان منها لا ينطبق على احكامه انطباقاً تامًّا لا يعمل به ولا يعوَّل عليه وكأنهُ اراد بذلك الخروج من دائرة الايمان وهو التسليم المطلق الى دار الفلسفة حيث الدليل والبرهان

على ان الربانية واصحاب التلمود الذين لم يرضوا عن اعمال فرقة القرائين نسجوا على منوالهم واتبعوا سبيلهم في ادعام العقائد الدينية بالادلة المستقاة من فلسفة تلك الايام وحسبك ان كبير علمائهم الذائع الصيت سعيد بن يعقوب الفيومي رئيس مدرسة سورا (بلدة قريبة من بغداد) محط رحال الربانية ومصدر قوتهم وضع كتاباً باللغة العربية في العقائد والافكار قال فيه بوجوب اتباع احكام العقل في العقائد وانهُ يحق للانسان فحص القضايا الدينية بل ان ذلك مطلوب منهُ وواجب عليهِ وان العقل الصحيح يرشد الانسان الى الحقائق التي يعلنها الوحي ولكن الوحي وجد وكان وجودهُ ضروريًّا لكي يوصل الانسان بسرعة الى ادراك تلك الحقائق التي لو تركت للعقل لاقتضى لهُ حتى يصل الى ادراكها عناء عظيم وزمن طويل

وحدث بعد موت سعدية بقليل ان ازدهرت الفلسفة العربية في الاندلس واتصلت شعلتها بيهود تلك البلاد فخرجوا عن السلطة الدينية سلطة مدرسة سورا وارادوا ان يستبدلوها بمدرسة جديدة يشيدونها بمدينة قرطبة ويعهدون بادارتها الى خيرة رجال العلم منهم حيث تلقن فيها انواع العلوم والفلسفة والفنون الادبية التي اهملها يهود المشرق

قامت هذه المدرسة في قرطبة وامَّها طلاب العلم من كل فج عميق وكان يومئذ من علماء اليهود طبيب بارع مقرب من الخليفة عبد الرحمن الثالث فسعى الى تقدم المدرسة وتعظيم شأنها ولم يمض عليها الزمن الطويل حتى ذاعت شهرتها وعرف رجالها بالتفوق في العلم والادب ونبغ منها جماعة من اكابر اهل العلم انصرفوا الى درس الفلسفة المشائية ووضعوا فيها الكتب النفيسة التي لم تزل منها بقية في مكاتب اوربا شاهدة بما وصلوا اليهِ من العلم والحكمة

على ان منتهى فلاحهم وازدهائهم كان في ايام الدولة الامرية بالاندلس وفي بعض المحال المجاورة لها في اطراف اسبانيا من الممالك المسيحية واشهر فلاسفتهم فيها موسى بن ميمون

الذي ولد في قرطبة سنة ١١٣٥ م ولما شب اخذ في درس اللاهوت وسائر العلوم المعروفة يومئذ عند اليهود وكان يحضر ايضاً بعد ذلك على اساتذة العرب ويكب على الدرس والتحصيل حتى بلغ من الحكمة شأواً بعيداً وصيتاً ذائعاً فلقبوه بموسى الثاني وافلاطون اليهود وكان كل اجتهاده ان يوفق بين الفلسفة المشائية والاسفار المقدسة وان يحمل الطلبة على اخضاع ايمانهم لاحكام العقل. وفي ايامه كان انقراض الدولة الاموية بالاندلس وعلى اثر انقراضها اصابت الشدة اليهود ففرَّ الى مصر واتصل بصلاح الدين فصار طبيبهُ

وفي اواخر القرن الخامس عشر سنة ١٤٩٤ م طرد اليهود من بلاد اسبانيا فاضمحلت بطردهم الفلسفة اليهودية على ان اليهود كامة او كجمعية دينية لم تشغل في تاريخ الفلسفة المكان الاول وانما كان لها المحل الثاني ومع ذلك فقد شارك اليهود العرب بالفخر اذ حفظا معاً العلم والفلسفة في عصر كانت اوربا فيه تائهة في ظلمات الغباوة م · ن

الارادة

" لو ارتتقت السموات والارض على رجل تحركت ارادته لفتقهما ووجد من بينهما مخرجا "

ما من طائفة اختل امرها وضل سعيها حتى اخذتها الرجفة وركبها الهول واصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس الا وقد خيت من قبل زناد اختيارها وتراخت عزيمتها

وما من امة تقوض مجدها وثل عرشها ومادت سكانها وانزعجت اركانها واصبحت لا ترى الا مساكنها الا وقد خمدت همتها وماتت ارادتها فتقاعدت عن المهمات وتربصت الصدفات وقالت انَّا ههنا قاعدون حتى يأتي الله بفتح من عنده

تلك حقائق راهنة في المدنية لا تتغير ومبادئ ثابتة في العمران لا تتبدل وسنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تحويلاً

وكأني بالقارئ يسأل عن ماهية الارادة لا يعرف لها معنى ولا يدرك لها كنهاً لما رسخ في ذهنه وطبع على قلبه من ان " الانسان مسيَّر لا اختيار لهُ يمضي على حكم القضا ومجاري القدر" - نعم ان الانسان يجري على احكام القضاء الا ان الله هداه النجدين العقل والهدى واودع فيه قوة تشرك العقل في امرها الا وهي الارادة مجر الهمة والعزم ومهد الحرية ومقيل النخوة والمروءة وموطن الغيرة والحمية ومبيت الانفة والاباء ومقام الاقدام والشهامة

فالارادة ايها القارئ الكريم خلة ثالثة للروح تحدو بالمرء الى مطالب العقل وقد يعرض